

٣- رسالة في الكلام على النفس لناطقة

نشرت هذه الرسالة في العدد الخامس من مجلة الكتاب [ابريل ١٩٥٢] اخلص ابن سينا بمناسبة انعقاد مهرجانه في بغداد . وهذه الرسالة عن النسخة الوحيدة المخطوطة بمكتبة ليدن رقم ١٤٦٨ ، وقد صورها المعهد الفرنسي بالقاهرة ، وسمح الميسو كوينس رئيس المعهد بنشرها . وقلت في التقديم للرسالة هذه الكلمة الموجزة :

لا نملك الجزم بنسبة هذه الرسالة للشيخ الرئيس ، فعنوانها لا يتفق مع الثبت الذي أورده ابن أبي أصيبعة ، وليس هذا دليلاً على عدم صحتها ، إذ جرت العادة أن يذكر للرسالة الواحدة عدة عناوين . ونستطيع بالنظر في مضمون الرسالة وأسلوبها وسياقها أن نرجح أنها تمثل رأى ابن سينا في آخر حياته ، حين اتجه اتجاهاً واضحاً نحو الفلسفة المشرقية ، كما نجد في كتاب « الإشارات » . والفكرة الرئيسية التي تدور حولها الرسالة هي الصلة بين النفس والبدن ، وكيف تتلقى النفس الفيض الإلهي .

obbeikandi.com

رسالة في الكلام على النفس الناطقة

للإمام الأوحيد الجليل الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا
رحمه الله تعالى ورضى عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مثقله ومشواه
وعن سائر علماء المسلمين . آمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم
رب يسر يا كريم

الحمد لله وحده . اعلم أن الإنسان مختص من بين سائر الحيوانات بقوة درأكة للمعقولات ،
تسمى تارة نفساً ناطقة ، وتارة نفساً مطمئنة ، وتارة نفساً قدسية ، وتارة روحاً روحانية ، وتارة
روحاً أمرياً ، وتارة كلمة طيبة ، وتارة كلمة جامعة فاصلة ، وتارة سرّاً إلهياً ، وتارة نوراً مدبراً ،
وتارة قلباً حقيقياً ، وتارة لبّاً ، وتارة نهى ، وتارة حجى .

وهي موجودة لكل واحد من الناس طفلاً كان أو كبيراً ، مراهقاً كان أو بالغاً ، مجنوناً
كان أو عاقلاً ، مريضاً كان أو سليماً .

وتكون هذه القوة في بدء وجودها عارية عن صور المعقولات ، وتسمى حينئذ بذلك
الاعتبار عقلاً هيولانياً . ثم تحصل فيها صور المعقولات الاولية ، وهي معان متحققة من
غير قياس وتعلم واكتساب ، وتسمى بداية العقول وراء عامية وعلوماً أولية غريزية ، وهي
مثل العلم بأن الكل أعظم من الجزء ، وأن الجسم الواحد لا يشغل مكانين في حالة واحدة ، ولا
يكون كله أسود وأبيض معاً ، وموجوداً ومعدوماً . ويتبها بهذه القوة لاكتساب المعقولات

الثواني إما بالفكرة وهي تعرف ما في هذه العقولات الأول بالتأليف والتركيب ، وإما بالحدس وهو تمثل الحد الأوسط فيها دفعة واحدة من غير فكر وتأمل . وأعني بالحد الأوسط العلة الموجبة للتصديق بوجود شيء أو عدمه ، أي الدليل المبرر للحكم . وهذا قد يكون عقيب طلب وشوق إلى حصول العقولات ، وقد يكون ابتداء من غير اشتياق وطلب .
لوما حصل الدليل حصول المدلول لامحالة . ثم يحصل لها بهذه العقولات المكتسبة هيئة وحالة تنهيا بها لإحضار العقولات متى شاءت من غير افتقار إلى اكتساب . وهذه الهيئة تسمى ملكة ، وتلك القوة ، في هذه الحالة وبهذا الاعتبار تسمى عقلا بالفعل . وإذا كانت العقولات حاصلة لها بالفعل مشاهداً متمثلاً فيها سميت بهذا الاعتبار عقلا مستفاداً .

وهذه النفس الناطقة جوهر قائم بذاته ، غير منطبع في بدن الإنسان ، ولا في غيره من الأجسام بل هو مفارق للمواد والأجسام مجرد عنها ، وله علاقة ما يبدن الإنسان مادام حياً . وليس تلك العلاقة كتعلق الشيء بمحلّه ، بل كتعلق مستعمل الآلة بالآلة . وهو حادث مع البدن لا قبله ، وليس يفسد بفساد البدن وموته بل يبقى كما كان ، إلا أنه [تحصل له حالة تسمى عندما] تنقطع علاقته عن البدن ، أي بعد انقطاع العلاقة بالموت ، سعادة ولذة ، أو شقاوة وألم .

وسعادته بتكميل جوهره ، وذلك بتزكيته بالعلم بالله ، والعمل لله . وتزكيته بالعمل لله هو تطهيره عن الأخلاق الرذيلة الرديئة ، وتقويمه عن الصفات الذميمة والعادات السيئة القبيحة عقلا وشرعاً ، وتحسينه بالعادات الحسنة والأخلاق الحميدة والملكات الفاضلة المرضية عقلا وشرعاً . وأما تزكيته بالعلم لله فتحصيل ملكة له ، بها يتنهيا لإحضار العقولات كلها متى شاء من غير افتقار إلى اكتساب ، فتكون العقولات كلها حاصلة له بالفعل ، أو بالقوة القريبة غاية القرب من الفعل ، فتصير النفس كرامة صقيلة تنطبع فيها صور الأشياء كما هي عليها من غير اعوجاج ، ومهما قوبلت بها بالتزكية العلمية تحصل مما سمة العلوم الحكيمة النظرية .

والتزكية العملية بالطرق المذكورة في كتب الأخلاق ، وبالمواظبة على الوظائف الشرعية والسنن المليية من العبادات البدنية والمالية والمركبة منها ، فإن [في] الوقوف عند مرضيات الشرع وحدوده ، والإقدام على امتثال أوامره أثراً نافعاً في تطويم النفس الأمانة بالسوء للنفس الناطقة المطمئنة ، أعنى تسخير القوى البدنية الشهوانية منها والغضبية للنفس الناطقة المطمئنة .

وقد تبين في العلوم الطبيعية أن الأخلاق والعبادات تابعة لمزاج البدن ، حتى إن من استولى البلم على مزاجه استولى عليه السكون والوقار والحلم ، ومن استولت الصفاء على مزاجه استولى عليه الغضب ، ومن استولت عليه السوداء استولى عليه سوء الخلق ؛ ويتبع كل واحد منها أخلاق آخر لاندكرها هنا . فلا شك أن المزاج قابل للتبديل ، فتكون الأخلاق أيضاً قابلة للتبديل بواسطة تبديل المزاج ، فتعين على ذلك استعمال الرياضة المذكورة في كتب الأخلاق . فهما اعتدل مزاج الإنسان تهدبت أخلاقه بسهولة ، فلاعتدل مزاجه أثر في ذلك . والمزاج الخارج عن الاعتدال ما تكون إحدى كميّاته الأربعة أو اثنتان منها غالبية عليه ، مثلاً أن يكون أحر مما ينبغي أو أبيض مما ينبغي . وهذه الكميّات الأربعة متضادة ، فالمزاج الخارج عن الاعتدال يكون مشتتلاً إما على ضد أو على ضدين ، أى ليس فيه حرارة ولا برودة بل كيفية متوسطة بينهما . وكلما كان المزاج أقرب إلى الاعتدال كان الشخص أكثر استعداداً لقبول الملكات الفاضلة العملية والعملية

وقد تبين في العلوم [الطبيعية] أن الأجرام العلوية ليست من امتزاج هذه العناصر الأربعة ، وهى عادة هذه الأضداد بالكلية ، وكان المانع عن قبول الفيض الإلهي - وأعنى به الإلهام الرباني الذي يقع دفعة فيكشف به حقيقة من الحقائق العقلية - إنما هو ملابسة هذه الأضداد . فلذلك كلما يكون المزاج أقرب إلى الاعتدال كان الشمس أكثر استعداداً لقبول هذا الفيض . وإذا كانت الأجرام العلوية عرية عن الأضداد بالكلية

كانت قابلة للفيض الإلهي. وأما الإنسان، وإن اعتدل مزاجه غاية الاعتدال، فليس يخلص عن شوائب الأضداد. ولاجرم مادامت النفس الناطقة متعلقة بالبدن لا يصفو قبول الفيض الإلهي، ولا تنكشف له العقولات بأسرها وجملتها تمام الانكشاف، لكنه إذا بذل جهده في التزكية العلمية واكتسب ملكة الاتصال بالفيض الإلهي، أي بالجواهر العقلي الذي يكون الفيض الإلهي بواسطته - ويسمى هو في لسان الشرع ملكاً وفي لسان الحكمة عقلاً فعالاً - واعتدل مزاجه، وعدم هذه الأضداد المانعة من قبول الفيض الإلهي، فقد حصل له مشابهة ما بالأجرام الفلكية، فشابها بهذه التزكية السبع الشداد، أي الأفلاك السبعة. ولما انقطع علاقة النفس بالبدن بسبب الموت الذي يعبر عنه بمفارقة الصورة للقوابل، فإن اسم الصورة قد يطلق على النفس واسم القابل لها على البدن، وإن لم يكن معنى هذا القبول هو (قبول المحل لما يحل فيه، بل كقبول محل التصرف للتصرف؛ فالبدن يقبل تصرف النفس، وبهذا الاعتبار جاز أن يسمى قابلاً للنفس، وجاز أن تسمى النفس صورة، فجاز أن يعبر عن انقطاع العلاقة بينهما بمفارقة الصورة للقوابل. وإذا حصلت هذه المفارقة، والنفس قد اكتسبت الملكات الفاضلة العلمية والعملية، وقد زال المانع عن قبول الفيض الإلهي بالكلية وهو علاقة التصرف في البدن، فيقبل الفيض الإلهي، وينكشف له ما كان محجوباً عنه قبل المفارقة، فحصل له مشابهة بالعقول المجردة التي هي أوائل علل الموجودات، إذ الحقائق كلها منكشفة لتلك العقول.

إذ ولقد عرفت أن الله تعالى خلق أولاً عقلاً ثم بواسطته عقلاً آخر وفلكاً، وبواسطة العقل الآخر عقلاً ثالثاً وفلكاً ثانياً، على الترتيب الذي ذكرنا. ^{بمعنى} فالعقول أوائل العلل. [فقوله: إن زكاهها بالعلم والعمل فقد شابه جواهر أوائل العلل أي العقول. وقوله: إذا اعتدل مزاجه بعدم الأضداد أي الكيفيات المتضادة، وشا كل بها السبع الشداد أي الأفلاك السبعة. وفارقت صورته القوابل أي انقطعت العلاقة التي بينه وبين البدن فشا كل به العلل الأوائل أي العقول المجردة].

فهذا ما أردنا ذكره في شرح هذه الحكمة الإلهية بحسب هذا المقام . وأما البرهان على إثبات جوهرية النفس ، الناطقة ، وقيامها بذاتها ، وتجردها عن الجسمية ، وعدم انطباعها في الجسم ، وبقائها بعد فساد البدن ، و كيفية أحوالها بعد الموت أهى منعمة أو معذبة ، فقيه طول وبسط ، ولا ينكشف ذلك إلا بعد ذكر مقدمات كثيرة . وقد اتفق لى رسالة مختصرة فى بيان معرفة النفس وما يتعلق بها فى بداية أمرى منذ أربعين سنة على طريقة أهل الحكمة البحثية ، فن أراد معرفتها فليطالعها فإنها مناسبة لطلبة البحث ، والله تعالى يهدى من يشاء إلى طريق أهل الحكمة الذوقية ، وجعلنا وإياكم فى زمرةهم ، إنه ولى ذلك ، والقادر عليه . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على خير خيرة من خلقه سيدنا محمد وعلى آله وعترته الطيبين الطاهرين وعلى صحبته أجمعين .

وكان الفراغ من مشقها فى صبيحة التاسع عشر من ذى القعدة الحرام سنة ١٢٨٤ على كاتبها لنفسه ولمن شاء أن يقرأ من بعده ، الفقير أحمد ولى الهندى المالكى الساعدى الخزرجى . عفا الله عنهم ولجميع المسلمين . آمين .